مقدمة الترجمة العربية

يعد مؤلف هذا الكتاب من أكبر كتاب الاستشراق شهرة في العالم الغربي في وقتنا هذا ، وله خبرة واسعة بالحركات الإسلامية السياسية ، فضلاً عن رؤيته الخاصة كمستشرق يفسر معطيات التاريخ السياسي الإسلامي بصورة تفتقر إلي الحيدة في كثير من الأحيان . ومع أن ترجمتنا لعنوان الكتاب إلى اللغة العربية جاءت بعنوان « اكتشاف المسلمين لأوروبا » ؛ إلا أن الكاتب لا يحدثنا عن هذا ، وإنما يحدثنا عن أمرين متصلين هما : الأول ، كيف استطاع المسلمون أن ينفذوا إلى أوروبا وينتشروا في بقاع عديدة في وقت سريع ، والعوامل التي ساعدت على هذا . والأمر الثاني ، كيف استطاع الأوربيون أن ينظموا أنفسهم ويستغلوا نقاط الضعف عند المسلمين ليوجهوا لهم ضربة قوية تبعتها ضربات وهزائم ، مستمرة حتى اليوم ، وهذا يكشف بصورة واضحة - كما نرى - عن موقف الغرب العدائي من الإسلام ، ومن ثم ينبغي ضرب القوى الإسلامية في العمق .

جاء الفصل الأول الذي عقده المؤلف ليناقش فيه مسألة هذا الاتصال والتأثير المترتب عليه ، حيث يبين لنا كيف أصبح الجزء الأكبر من الامبراطورية الرومانية في سوريا وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا خاضعاً للحكم الإسلامي ، وكيف أمكن العبور من شمال أفريقيا إلي أسبانيا ، فأصبح الخطر يحدق بأوروبا من الشرق والغرب .

والمؤلف مع خبرته الواسعة بالحركات السياسية استطاع أن ينتقل من هذا المعطي الأخير « الخطر المحدق » إلى تفسير كيف استطاع العالم الأوربي المسيحي أن يضع أصابعه على مكامن الضعف ، بحيث أصبح بمقدور فلول الجيوش الأوروبية المنهوكة من الصراع الداخلي ، أن تتوحد لتحقيق انتصارات حاسمة على الجيوش الإسلامية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي في نقاط مهمة خاصة بالقرب من البحر الأسود

وجزيرتي صقلية وسردينيا وإسبانيا أيضاً ، بل وتقفز في الوقت نفسه إلى مناطق مثل سواحل سوريا وفلسطين .

ولكن المؤلف يعترف أن الدولة الإسلامية استعادت تقدمها مرة أخرى حين تقدمت الدولة العثمانية إلى اسطنبول والقسطنطينية في عام ١٤٥٣ م ، وامتد نفوذها لكثير من البلدان مثل ألبانيا واليونان والبلقان والمجر . وقد تمثل هدف الدولة العثمانية في النفاذ إلى قلب أوروبا ، إلى فيينا وروما وبودابست . وهنا شكل التقدم الإسلامي الجديد ، كما يرى المؤلف ، ولا ندري كيف ! ، تهديداً مباشراً وخطراً للعالم المسيحي ! .

إلا أن المؤلف يعود فيؤكد أن الخطر قد زال بعد عقد معاهدة ١٦٩٩ م التي - كما يرى المؤلف - فتحت صفحة جديدة من العلاقات السياسية بين الدولة العثمانية وأوروبا المسيحية . والذي لاشك فيه أن المؤلف أهمل الإشارة إلي أن هذه المعاهدة كان لها أثرها السلبي على الكفاح الإسلامي في الغرب ، فأغفل كفاح الأندلسيين الذي انهار تحت ضربات فرديناند وإيزابيلا في أواخر القرن الخامس عشر ، وأوائل القرن السادس عشر الميلادي ، وكان ذلك بتأثير تدخل البابا في روما لدى الدولة العثمانية لتحييدها في مشكلة جلاء المسلمين جملة عن أسبانيا ، ولا سيما عن الأندلس ، ولهذا أغمضت الدولة العثمانية عيونها عن مصير هؤلاء التعساء من المسلمين . هذا بالإضافة إلى تمكن الدولة الأسبانية المسيحية في الأندلس من إغراء حكام مصر حينذاك وتشويه الحقائق لديهم عن أحوال المسلمين الذين كانوا يسمون وقتها بالمدجنين لأنهم أجبروا علي التنصر ، ومع ذلك انتزعت منهم توقيعاتهم بأن الحاكم المسيحي يوفر لهم كل الظروف المساعدة لأداء الصلوات ومن بينها صلاة الجماعة ، وقد تمثل هذا في الوثيقة التي حملها أحد اليهود ومعها رشوة كبيرة من الذهب إلى حاكم مصر ، وبذلك أحكم الحصار على مسلمي الأندلس الذين أجبروا على التنصر ، لم يبق لديهم سوى موقف قراصنة البحر الجزائريين في غرب البحر المتوسط ، الذين انتقموا لمصير مسلمي الأندلس انتقاماً شديداً ، وأسدل الستار علي هذه المأساة التي كانت نتيجة لمخطط البابا - كما ذكرنا - لحماية الدولة الكاثوليكية الناشئة في أسبانيا . وكان جديراً بهذا المستشرق أن يشير إلى

هـــذه النكسـة التي أصـابـت المسلمـين في المغرب بـسبب تحالف المـسلمين مـع الدولة العثمانية .

إذن - كمـا يرى المؤلـف - انطلاقاً مـــن معاهـدة ١٦٩٩ م تغيرت نـظرة تركـيا لأوروبـا ، ممـا أدى إلى لجوء الدولـة العثمـانية إلى تـبني سيـاسة التفـاوض مع الدول الأوروبية . ولكن مـع هذا فطن أصحاب الرأي في الـدولة العثمانية إلـى ضرورة بعث القــوة في جسد الامـبراطورية العـثمانيـة ككل عن طـريق الاعتماد عـلى فنون الـقتال الحديثة . وتمثل ذلك في افتتاح مدرسة الهندسـة العسكرية ومدرسة البحرية ، وغيرها ، فاستقدم الضباط من الغرب لتدريب الجنـود على فن القتال . لكن موازين القوى عادت مرة أخرى لتـمارس تأثيرها علـى الصعيد الفكري والاجـتماعي يوم أن جاء نابـليون إلى مصر في عام ١٧٩٧ م فدخلت الامبراطورية العثمانية ككل في حلقة جديدة من حلقات التأثر بالفكر الغربي الحديث .

ومع التركيز الذي نلحظه من جانب المؤلـف على بعض القضايا المهمة في الاتصال والتأثير ، لم يغب عـنه أن يخصص الفصل الثاني للإشارة إلى نظرة المـسلمين للعالم ، حيث عرض لفكرتهم الأساسـية عن « دار الإسلام » و « دار الحرب » ، وفكرتهم عن الجهاد ، ثم حدث تحول في فكرة نظرهم من الجهاد إلى التسامح ، وتطور العلاقات بين المسلمين والعالم الغربي خاصة في مجال التجارة والسفارة .

ويناقش الفصل الثالث مسألة اللغة والتـرجمة ، وأهم الترجمات اليونانية في العالم الإسلامي ، وكيف نقلت الـعلوم المختلفة إلى العربية ، وكيف أن نـقل العلوم قام على الاختيار الصحيح ، وإلى أي مدى استفاد العالم الإسلامي من المعارف التي وصلته عن هذا الطريق .

أما الفصل الرابع الـذي جعله بعنوان « الوساطة والوسطاء » فـقد أشار فيه المؤلف إلى قضايا مـتعددة ومتداخلة ، من بـينها ما يشير إلـيه من اتساع المعارف الجغـرافية عند المسلمين ، وهو ما يظهـر بوضوح في كتابات المسعودي وابن الفقيه التـي تثبت معرفتهم بالجزر البـريطانية وأيرلندا والـدول الإسكندنافية . وتأثـير كتب الرحلات على نـظرتهم

لعادات وتقاليد الأوربيين . وكيف أن الإدريسي تطرق لمعارف ومعلومات كثيرة جمعها من رحلاته ، وكيف رسم الخرائط ، وفي عهد الدولة العثمانية اتسعت المعارف على عهد السلطان سليم خاصة حين وضعت أول خريطة لأمريكا .

وربما لم يشر المؤلف إلى بعض الحقائق الهامة هنا لطمس معالم الحقيقة التاريخية ، فقد كان للعرب الفضل الأكبر في تنمية دراسات علوم البحار في مدرسة جنوا البحرية ، إذ أنه قد أصبح تقليداً أن يكون كبير المعلمين في هذه المدرسة من العرب ، لهذا فإنه أقرب إلى الاحتمال أن تكون الخرائط التي توصل عن طريقها كولومبوس إلى اكتشاف أمريكا من صنع الملاحين العرب ، فضلاً عن أن معظم الذين صاحبوا كولومبوس من البحارة كانوا من المضطهدين دينياً في أسبانيا ، أي أنهم من بين المدجنين الذين أجبروا على التنصر ، ففروا بدينهم خلاصاً من هذا المحيط الخانق المستبد إلى ميدان أوسع وأرحب ، وهو أمريكا .

ويناقش المؤلف العديد من الموضوعات التي تثير الاهتمام في هذا المجال فيبحث في الدراسات التي صدرت في العالم الإسلامي عن الغرب ، ثم يخصص جزءاً من الحديث عن الدين والمذاهب المختلفة عند المسيحيين ، وكيف أن بعض الكتاب في العالم الإسلامي مثل « رشيد الدين » الإيراني ، و « كاتب جلبي » التركي ، يذكران قائمة بأسماء الباباوات وأوقات انتخابهم ، ومحاكم التفتيش وحركات الإصلاح الدينية في أوروبا . وكيف أن المسلمين استبعدوا فكرة أن أوروبا المسيحية تهددهم دينياً ، واستبقوا فقط فكرة التهديد السياسي والعسكري الذي عززته بشارة الحملة الفرنسية التي اتجهت إلى مصر وحملت معها أفكار فولتير وجان جاك روسو كمفكرين اجتماعيين .

وقد ناقش المؤلف النظام الاقتصادي في العالم الإسلامي ، وكيف اهتم الرحالة بالإشارة إلى ما وجد عند الغرب من سلع مختلفة ، وكيف أن بعض أنواع التجارة ازدهر مثل تجارة السلاح ، وكيف تحول العالم الإسلامي من القوة الاقتصادية إلى الضعف الاقتصادي ، بحيث أمكن للغرب أن يبسط سيطرته على الشرق الأوسط ككل بحلول نهاية القرن الثامن عشر .

وعلى صعيد آخر يناقش المؤلف « الحكومة والعدالة » فيتتبع نظم الحكم في أوروبا ، وفي العالم الإسلامي ، من حيث الترتيب والتنظيم . وكيف أن نظرة المسلمين لأوروبا تغيرت كثيراً في عهد رفاعة الطهطاوي الذي ترجم الدستور الفرنسي ، وأشاد بمبدأ المساواة أمام القانون وضمان الحريات .

وجاءت فكرة المؤلف عن العلوم والتكنولوجيا شاملة بحيث وجدناه يتحدث عن بعض أبحاث علماء المسلمين وقد وقع المؤلف في كثير من المغالطات حين نسب الكثير من الاكتشافات العلمية لعلماء الغرب ، ولم يعترف إلا بفضل سطحي لعلماء المسلمين . وليس هذا بجديد على من ينكرون أصالة العقلية العربية الإسلامية وإبداعها ، ويكفي أننا أوضحنا في كثير مما كتبناه في هذا المجال إلى مغالطة الغرب في هذا التصور ، خاصة ما كتبناه في تاريخ الطب العربي ، وغيره من المواضيع الأخرى . لكننا آثرنا أن نترك نص المؤلف كما هو دون تدخل منا حتى لا نفرض على النص ما لم يذهب إليه المؤلف من أفكار .

وفي مجال إشارته للحياة الثقافية بيَّن جوانب كثيرة من نواحي التأثير والتأثر بين أوربا والعالم الإسلامي ، وكيف أن عناصر من هنا التقت مع أخرى من هناك ، وكيف مثلت التصورات الفنية الجديدة التي ظهرت بحلول نهاية القرن الثامن عشر ، مرحلة جديدة في الأسلوب الفني بعد ظهور المدارس الفنية الحديثة .

إن مؤلف هذا الكتاب يطل علينا من الشرق . . العالم الإسلامي بنظارة غربية لها رؤيتها الخاصة التى تشكلت كخلاصة غربية عن المسلمين . ولكنني آثرت أن أترك نصه كما هو دون تعديل ، أو حذف ، أو إضافة ، ليتبين للقارئ إلى أي مدى يجب علينا أن نأخذ بأسباب النهضة العلمية التي لابد وأن تعيد إلينا ماضينا الحضاري إذا ما اعتصمنا بديننا الحنيف .

بعد هذه الإطلالة السريعة علي هذا الكتاب يطيب لي أن أنسب الفضل لأصحابه ، فقد تعثرت - في بداية رحلتي مع هذا الكتاب التي بدأت منذ سنوات طويلة مضت - في كثير من المواضع التاريخية المُلغّزة في الفصل الأول ، فأعانني الأستاذ الدكتور محمود سعيد عمران - أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الاسكندرية - على فهم ما صعب عليّ . ثم كان أن قرأ الأستاذ الدكتور أحمد صبحي - أستاذ الفلسفة

الإسلامية بجامعة الاسكندرية - النص المترجم كاملاً ، وأبدى رأيه في تصحيح بعض الترجمات فعملت بما أشار . وكذا قام الصديق الأستاذ الدكتور جبر سلومه - أستاذ اللغة العربية بجامعة الاسكندرية - بقراءة أكثر الفصول الأولى ، وأشار بآراء صائبة وضعت أكثرها في اعتباري . وفي نهاية الأمر قرأت هذه المقدمة على العالم الجليل الأستاذ الدكتور محمد علي أبو ريان - أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة الاسكندرية - الذي أشار ببعض التعديلات للآراء التي دفعت بها في هذه المقدمة . فلكل هؤلاء الأساتذة الأفاضل الشكر والامتنان على ما بذلوه من وقت ، وعلى الآراء القيمة التي استفدت منها خلال رحلة العمل في هذه الترجمة .

ومن الواجب علىَّ أن أرد الفضل لأصحابه ، إذ لولا ما بذله من جهد الأخ الصديق الكريم الأديب الصحفى الأستاذ سامى خشبه لطباعة هذا الكتاب ما تمكنت من هذا . وأخص بالشكر والعرفان أيضًا الصديق العالم الأستاذ الدكتور أحمد شوقى الذى حرص على متابعة هذا العمل فى كل مراحله ، ولولا مجهوداته لتعثرت كثيرًا . وكذلك أذكر بالفضل والشكر الأستاذ أحمد أمين صاحب ومدير المكتبة والأستاذ حمدى قنديل على ما بذلاه من جهد لإخراج هذا العمل إلى النور .

أمر أخير - لابد من الإشارة إليه - وهو أن النصوص العربية التي أشار إليها المؤلف ، سعيت إليها ونقلتها من مصادرها الأصلية المتاحة . أما النصوص التي ترجمها المؤلف أصلاً عن مصادر فارسية وتركية ، فلم يكن باستطاعتي أن ألتمسها من مصادرها .

إننا إذا كنا نريد اللحاق بركب العلم المعاصر علينا أن نقرأ ما يكتبه الغرب عنا ونعيه جيداً ، ونقف منه موقف المفكر الناقد ، لا الموافق على كل ما يفد إلينا من آراء . إنني اعتقد أن في نقل هذا الكتاب منفعة للقارئ المثقف ؛ إذ يمكن أن تنهض على أساسه أفكار نقدية متواصلة .

الإسكندرية في

أول أغسطس (آب) ١٩٩٥

ماهر عبد القادر محمد

تصـــدير

فى التقليد الغربى للتاريخ ، يستخدم اصطلاح « الاكتشاف » Discovery استخداما شائعا ليدل على تلك العملية التـى بدأت بها أوروبا ، خاصة أوروبا الغربية - من القرن الخامس عشر فـصاعدًا - اكتشاف سائر الـعالم . وبحث هذا الكتـاب ، أو موضوعه ، وهو اكتشاف آخر مواز ، متشابه فى بعض الـنواحى ومختلف فى البعض الآخر ، بادئا مبكرا ومـستمرا إلى مرحلـة متأخرة ، موضوع لـيس الأوروبى فيه هو المكـتشف الذى يكتشف الشعوب البربرية فى مناطق غربيـة ونائية بل المكتشف فيه هو بربرى (أجنبى) اكتشفه ولاحظه باحثون من بلاد إسلامية .

وفى الصفحات التالية نحاول تقصى مصادر المعرفة الإسلامية وطبيعتها حول الغرب ومراحل تطوره . وتبدأ الـقصة بالبعثات الإسلامية الأولى داخـل أوروبا . وتستمر مع الهجوم المضاد للمسيحية الغربية ضد الإسلام ، واندلاع الحرب الإسلامية المقدسة نتيجة لذلك . كذلك تسـتمر مع تجديد وامتداد العلاقـات التجارية والدبلوماسيـة بين المسلمين والمسيحيين على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، وتمتد القصة مع ظهور حكام المسلمين الجدد فى تـركيا وإيران والمـغرب واكتشـافاتهم فـى أوروبا (وذلك بعـد انتهاء الـعصور الوسطى) . وتنتهى القصة بالمراحل الأولى لـلصدام الأوروبى الكبير - من القرن الثامن عشر فـصاعدا - على أراضى المـسلمين فى الشـرق الأوسط ، وبدايات مرحلـة جديدة فرض فيها الاكتشاف الإسلامى .

والكتـاب يشمل ثـلاثة أجزاء . الجزء الأول مـنه يتعـرض للعلاقـات بين الإسلام وأوروبا الغربية ، متناولا الأحداث البارزة من زاوية جديدة .

ولقد حاولـت أن أفهم معارك تور وبـواتيه Tours and Poitiers ليس من خلال عيون شارل مارتيل ولكن من خلال عيون خصومه العرب ، ليبانتو Lepanto من منظور

الأتراك ، وحصار فيينا من معسكر المحاصرين . وهذه الرواية تتميز بالتأكيد الذى تعطيه لوجهة النظر الإسلامية عن العالم ومكانة الإسلام فى هذا العالم .

أما الجزء الثانى من الكتاب فإنه يتعلق باللغات التى استخدمت فى الاتصال بين المسلمين والأوروبيين ، بما فى ذلك مسائل الترجمة والتفسير والرحالة والتجار والبعثات والجواسيس وغير ذلك - من الذين رحلوا من الأراضى الإسلامية إلى أوروبا ، ولقد أعطينا بعض الاهتمام للدور الذى قام به اللاجئون والرعايا غير المسلمين من الولايات الإسلامية . وينتهى هذا الجزء من الكتاب بنظرة على صورة أوروبا الغربية كما تعكسها المؤلفات الإسلامية وبصفة خاصة الكتابات التاريخية والجغرافية .

وأما الجزء الثالث من الكتاب ، فقد خصص لموضوعات متنوعة ، لموضوعات اقتصادية ولموضوع الحكومة والعدالة ، والعلم والتكنولوجيا ، والآداب والفنون والشعوب والمجتمعات .لقد كتبت مؤلفات كثيرة فى السنوات الأخيرة حول اكتشاف الإسلام بفعل أوروبا . ومع ذلك ، ففى معظم هذه المناقشات يظهر المسلم كأنه الضحية الصامتة السلبية . ولكن العلاقة بين الإسلام وأوروبا ، سواء في الحرب أم فى السلام ، كانت دائما حواراً وليس مونولوجا ، وكانت عملية الاكتشاف متبادلة . وليست المفاهيم الإسلامية أقل جدارة بالدراسة من المفاهيم الغربية .

لقد استغرق هذا الكتاب وقتا طويلا . وقد أصبحت مهتما بالموضوع منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما ، وقدمت أول بحث لى « للمؤتمر الدولى للعلوم التاريخية » فى روما سنة ١٩٥٥ ، وتبعته بمقالات أخرى تتعلق بجوانب الاكتشافات وألقيت محاضرات فى الجامعات فى شمال أفريقيا ، والشرق الأوسط ، ومناطق أخرى تشمل جامعات أمريكية عديدة . ومادة هذا الكتاب قدمت لأول مرة بشكل مطول فى مجموعة نشرات فى البرنامج الثالث من الـ بى.بى.سى B.BC سنة ١٩٥٧ . وأنا مدين لكل جمهورى فى كل هذه المناطق بالفرص التى منحونى إياها لأقدم عرضى هذا وأحسنه بهذا الشكل .

ويبقى أن أشكر هؤلاء الذين ساهموا بطرق متنوعة فى اتمام ونشر هذا العمل . وتقديرى الخاص إلى السيدة / دورثى روثبارد Dorothy Rothbard فى جامعة برنسيتون

والسيدة / بيجى كلارك Peggy Clarke من معهد الدراسة المتقدمة وذلك لاهتمامها بعملية الكتابة والطباعة فى ظل ظروف شديدة الصعوبة ، وأوجه الشكر إلى السيدة / كاثى كورنوفتش Cathy Kornovich . وكذلك أوجه شكرى إلى أربعة من الطلاب فى جامعة برنستون وهم السيدة / شاءون ماريون Shaun Marmon والسيدة / آلان ماكوفسكى Alan Makovsky لما قدمتاه من عون كبير خاصة فى الإعداد النهائى للعمل ، كذلك شكرى إلى السيد / ديفيد ايزنبرج David Eisenberg لمراجعته وتصحيحه مجموعة من الأدلة ، وأشكر السيد / جيمس يارسون James Yarrison لاقتراحه النافع والمفيد وأوجه شكرى إلى مسز نورا تاتيلى Norah Titley من المكتبة البريطانية لندن ، وكذلك الأستاذ جلين ميريدث أونيس Glyn Meredith Owens من جامعة تورنتو لمعونته ونصائحه فى اكتشاف المادة المناسبة لهذا المؤلف ، وأوجه شكرى إلى صديقى وزميلى الأستاذ شارلز عيسوى Charles Issawi لقراءته النص النهائى وتقديمه عددا من التعليقات المفيدة .

برنارد لويس

٢٠ ابريل ١٩٨١